الاستشراق ورهاب الأديان

سعيد الغانمي

يُقال إنَّ قبيلةً إفريقيَّةً في مجاهل الغابات دخلتْ في حربٍ مع الجيش الفرنسيّ. فطيَّرَ الفرنسيُّون عليهم طائرةً حصدتهم حصداً. اجتمعَ زعماءُ القبيلةِ وحكماؤُها للتَّداول بشأن هزيمتهم، فرأوا أنَّ الجيش الفرنسيَّ لم ينتصر عليهم إلّا لأنَّ آلهة الفرنسيّين أقوى من آلهتهم. حينئذٍ قرَّ قرارُهُم على شراء طائرة. جمعت النِّسوة صيغتَها، وأسهمَ الشُّيوخ والشَّباب بما يملكون، ونجحوا في إيصال الطائرة إلى أرض القبيلة. لكنَّهم بدل أن يطيّروها على الفرنسيّين، صاروا يرقصون الرَّقَصاتِ العباديَّة حولها، وهم يَتَوَسَّلون إليها أن تهزمَ الفرنسيّين.

سواء أكانت هذه القصَّة حقيقيَّةً أم مجرَّدَ نكتةٍ، فإنَّها تضعُنا في قلب مفهوم الاستشراق. فالاستشراق هو تعميم رؤية تنميطيَّة ليس للشَّرق وحده، بل للغرب أيضاً معه. ويمثِّلُ موقف الطَّرَفَينِ من الطائرة موقفاً من النَّظرة إلى العالم. فالفرنسيُّون الغربيُّون يتصوَّرون أنَّ الطائرة لا تُسْتَخْدَمُ إلّا كسلاحٍ للإبادة، في حين أنَّ القبيلة الإفريقيَّة لا تتصوَّرُها إلّا كإلهٍ للعبادة. وفي هذا فليس الفرنسيُّون وحدَهُم يطالبون القبيلة الإفريقيَّة بالتَّطابق مع رؤيتهم، بل إنَّ القبيلة الإفريقيَّة تُطالب الفرنسيّين أيضاً بالتَّطابق مع رؤيتها.

يرد بعض الباحثين بدايات الاستشراق الأولى إلى حقبة المواجهات بين الحضارات الشَّرقيَّة والغربيَّة، ولا سيَّما في الحروب الفارسيَّة الإغريقيَّة. وهم ينظرون بالتالي إلى تقسيمات من طراز "الهيلينيّين" و"البرابرة" بوصفها صدى لهذه النَّظرة الاستشراقيَّة الطَّبيعيَّة. على أنَّ هذا التَّناول لا يخلو من محاولة البحث عن سابقة. فالثَّقافات التي تحتكُّ ببعضها تتبادل النَّبز. ولا علاقة لهذا بالاستشراق لأنَّه يمكن أن يظهر بين من ينتمون إلى ثقافةٍ واحدةٍ، كالتَّقسيم إلى عرب وعجم،

أو حتّى إلى لغة واحدة وبطنٍ قَبَليٍّ واحدٍ، كالتَّمييز بين بكر وتغلب. وهناك لغات تقسّم العالم بضمائر تملُّك تعود للقبيلة وضمائر تملُّك لغير القبيلة. فهل نعدُّ هذا استشراقاً؟ لعلَّ تسمية لحظة المصادمات الأولى بالاستشراق أمرٌ لا يخلو من تسرُّع، أو في أحسن الأحوال فهو استشراق بدائيٌّ. أمّا الاستشراق الحقيقيُّ فينبغي البحث عنه في ظلّ مؤسَّسة ترعاه وتغذِّيه.

يمكن تسجيل بداية خجولة للاستشراق الأكاديميِّ مع حملة نابليون على مصر، التي اصطحبته فيها بعثة من ثلاثمائة عالم في مختلف التَّخصُّصات. وتحت تمثال أبي الهول وقف نابليون يخطب بجنوده: "أيُّها الجنودُ، إنَّ خمسةَ آلاف سنة من التَّاريخ تتطلَّعُ إليكم". لكنَّ المسافة الثَّقافيَّة في عصر نابليون لم تكن كبيرة بين الشَّرق والغرب. وإذ انتصر نابليون عسكريّاً، فقد انهزمَ ثقافيّاً، وليس تظاهرُهُ بإعلان الإسلام سوى عنوان لهذه الهزيمة الفكريَّة.

على أنَّ البداية الحقيقيَّة للاستشراق الأكاديميِّ ظهرت في عصر الاستعماريَّة (أو الكولونياليَّة) في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، مع الدَّور الذي قامت به مؤسَّسات إمبراطوريَّة في رعاية الاستشراق مثل شركة الهند الشَّرقيَّة. ولم يكن من المصادفة أبداً أنَّ الجيل الأوَّل من المستشرقين الكبار من طراز ماسنيون وفيلبي ولورانس العرب ومسز بل، كانوا ضبّاطاً في الجيش أو أعضاء في البعثات الدُّبلوماسيَّة. وكان الدَّور المنوط بهؤلاء هو تطويع معرفتهم الأكاديميَّة بالشَّرق لتحقيق أهداف الإمبراطوريَّة الغربيَّة. كان الاستقطاب على أشُدِّهِ بين الشَّرق البدائيِّ المتخلِّف -كما يتصوَّرونه- والغرب المتطوِّر المتنوِّر، ويجب أن ينقل الاستشراق مهمَّة التَّنوير الغربيِّ للشَّرق المظلم، حتّى لو تحقَّق ذلك عن طريق العنف. من هنا ارتبط الاستشراق الأكاديميُّ بمفهومين منذ بداياته؛ فمن ناحية ارتبط بتصوُّر تفوُّق الغرب على الشَّرق، أي مركزيَّة غربيَّة شديدة، ذات طابع تنميطيٍّ ترى أنَّ الشَّرق والغرب مفهومانِ مطلقانِ، وأنَّ التَّفاوت بينهما أبديٌّ في سلَّم الرُّقيِّ، ومن ناحية أخرى، ارتبط بالاستعماريَّة والكولونياليَّة وحمل

الشُّعوب بالعنف على القبول برسالة الغرب الخالدة، وإكراهها على تناول مشعل التَّنوير الغربيّ، أي بعبارة أخرى، إكراهها على التَّطابق مع التَّصوُّر الغربيّ عنها.

نجح الاستشراق الأكاديميُّ منذ منتصف القرن التاسع عشر في تطبيق منهج فيلولوجيٍّ دقيق أسفر عن نتائج مذهلة. ففي حين كان ينظر الشَّرقيُّون إلى الأهرامات والزِّقُّورات التي يتوسَّدونها باعتبارها من المباني التي بَنَتْها الجنُّ لسليمان أو السَّحرة للفراعنة والنَّماردة، ولم يجرؤ شرقيٌّ على مغامرة الكشف عن تاريخيَّة كتاباتها، انكبَّ الاستشراق على فكّ شفرة النُّظم الكتابيَّة في الشَّرق القديم، ودراستها وتحليلها وإعادة السِّياق التاريخيّ لها. وحين كانت النَّزعة المركزيَّة الأوربيَّة متمثِّلة في فلسفة هيغل لا تخجل من وصم الشَّرق بأكمله من تركيا إلى الصِّين بأنَّه "مجتمعات بلا تاريخ"، بينما ترى في نابليون "وعي العالم على جوادٍ"، كان الاستشراق الأكاديميُّ وحده من يتصدَّى لهذه النَّظرة الإطلاقيَّة، ويكشف أنَّ مجتمعات الشَّرق لا تقلُّ تاريخيَّةً عن مجتمعات الغرب، وبأداة الفيلولوجيا نفسها، التي اقترحتها فلسفات القرن التاسع عشر.

وهنا بالضَّبط تكمن قوَّة الاستشراق وأهمِّيَّته، وهنا أيضاً يكمن ضعفه. فهو خطاب عن الشَّرق موجَّهٌ إلى الغرب، وليس إلى الشَّرق. وفي الوقت نفسه، فإنَّ اعتبار الشَّرق موضوعاً، وليس ذاتاً، أي تثبيته في صورة متحجِّرة لا تتحرَّكُ يبحثُها المستشرق، وليس التَّحاور معه كثقافة حيَّة تتطوَّر، يعني وقوع الاستشراق نفسه في أسر الفيلولوجيا، ممّا يُفضي إلى خلق إشكاليّات كاذبة أحياناً، هي من توهُّمات الغرب عن الشَّرق، ولا وجود لها في الواقع. وكم من الإشكاليّات الموهومة التي صنعتْها آليّات الاستشراق ليكتشف هو نفسه فيما بعد أنَّها لم تكنْ سوى ثمرةٍ من ثمار الفيلولوجيا الدَّقيقة التي طبَّقَها.

لكنَّ النَّزعة الاستعماريَّة الكولونياليَّة نفسها سرعان ما اضطرَّت إلى التَّراجع. وأخلت ساحة الشَّرق لثقافة ما بعد الاستعماريَّة. وبالنَّتيجة، وجد الاستشراق،

كحقلٍ معرفيٍّ، أنَّ عليه أن يتخلَّى عن التَّجاهر بنزعته المركزيَّة، وأن يعيد النَّظر في أُسسِهِ الضِّمنيَّة أو الصَّريحة. وحين أفلح في ترسيخ نفسه كحقلٍ معرفيٍّ بمعزل عن الاستعماريَّة، وفي ثقافة الحقبة ما بعد الاستعماريَّة، صار يُرائي بالانفتاح والتَّعدُّديَّة. وبالطَّبع لم يكن الاستشراق سلبيّاً في تفاعله مع المناهج المتعدِّدة الحديثة التي تولَّدت عن الحراك الثَّقافيِّ في الغرب. بل تفاعل مع جميع المناهج، وانفتح عليها. وكأغلب الحقول المعرفيَّة الأخرى، صار لا يكفُّ عن ممارسة نوع من النَّقد الذاتيِّ لنفسه، بهدف تطوير آليّاته، والاستفادة من المناهج المختلفة. وفي هذه النُّقطة يستطيع الاستشراق أن ينتبه إلى ما لا يراه الشَّرقيُّون، لا لغموضه، بل لوضوحه. وليس من شكٍّ في أنَّ بعض الأشياء تحتاج إلى مسافة فاصلة بين الرائي والمرئيِّ لتحقيق الرُّؤية. بعبارة أخرى، يمكن أن يؤدِّيَ الاستشراق دورَ مهمازٍ لتحريض رؤية شرقيَّة بكشفه عمّا لا يراه الشَّرقيُّون بسب حضوره الساطع، وليس غيابه الآفل. على أن يظلَّ في البال أنَّ المعرفة البشريَّة هي معرفة نسبيَّة سواء أصدرت من الشَّرق أم من الغرب.

بعد أحداث أيلول / سبتمبر 2002، بدأ الإسلام كدين يواجه موجة غاضبة من الإعلام المضادِّ الذي يسعى إلى تنميطه كدين وتعميم رؤية معادية للمسلمين تصفُهم بالإرهاب. وهي موجة يختفي عنها النَّقد تماماً، وتتَّسم بغيابٍ مطلقٍ لأيَّة مرجعيَّة فكريَّة أو ثقافيَّة، بل مجرَّد هجوم شعبيٍّ انفعاليٍّ، تشبه في بعض جوانبها الهجمة التي قام بها الإعلام البريطانيُّ في السَّبعينيّات حين حوَّل الإيرلنديين إلى سعادينَ وقردةٍ، بعد شيوع ثقافة الانتحار لديهم. لكنَّ الموجة الإعلاميَّة التي جوبِهَ بها الإسلامُ أوسع بكثير وأقوى تأثيراً. وربَّما أمكن وصفُها بأنَّها "استشراق إعلاميٌّ". وفضلاً عن التَّنميطيَّة وغياب النَّقد، فإنَّ الاستشراق الإعلاميَّ يمتاز بالغوغائيَّة والتَّسلُّطيَّة. فهو لا يصدر عن جهة أكاديميَّة مسؤولة عمّا تطلقُهُ من أحكام، بل يتكوَّن من شائعات شعبيَّة وأفكار عدوانيَّة متداولة، تصدرُ أحياناً عن جهاتٍ لا ملامحَ لها، ولا يمكن الرَّدُّ عليها أو مناقشتها. في برنامجٍ تلفزيونيٍّ على إحدى الفضائيّات، تحدَّث متكلِّم مرَّة بأنَّ كلَّ الأديان يمكن التَّعامل معها إلّا

الإسلام، فالمسلمون لديهم حديثٌ يقول سينتصر الإسلام في آخر الزَّمان بحيث يختفي اليهوديُّ تحت حجر، فيُنادي الحجر: يا مسلمُ، تحتي يهوديٌّ، تعالَ اقتله. هذا هو موقف المسلمين من بقيَّة الدِّيانات. ولا يستطيع المسلم أن يردَّ عليه بأنَّه يستشهد بحديثٍ عن نهاية الزِّمان، أي عن رؤية فردوسيَّة تتكلَّم فيها الأحجار، وليس المسلم واليهوديُّ فيها سوى رمزين للخير والشَّرِّ، مثل "شايلوك" في مسرحيَّة شكسبير، وأنَّ هناك عشرات الأحاديث التاريخيَّة التي تشرِّع لحقوق اليهود والمسيحيِّين في الدَّولة الإسلاميَّة الفعليَّة. ونُشِرَ في الصُّحف الأستراليَّة مقال يتَّهم المسلمين جميعاً بالإرهاب: السُّنَّة بالتَّعاطف مع بن لادن، والشِّيعة بالتَّعاطف مع حزب الله. بجملة واحدة تتمُّ شيطنة ثلث البشريَّة. وهذه جملة تمتلك القدرة على الانتقال بسهولة، وتمارس تأثيرها في اللاشعور الجمعيِّ. واستغلَّت بعض الكنائس المناخَ المضادَّ للمسلمين، فصارت تنشر صوراً دعائيَّة تقدِّم فيها صورتين متقابلتين لبعثة تبشيريَّة تحنو على الأطفال المشرَّدين في إفريقيا، تكتب فوقها: هذه هي المسيحيَّة، وصورة الطائرة وهي تخترقُ برج التِّجارة العالميِّ مكتوباً فوقَها: هذا هو الإرهاب. والواقع أنَّ كلمة "الإرهاب" هنا أكثر خطورة من الإسلام. فلو كتبت الكنيسة: "الإسلام"، لأمكن مقاضاتها بتهمة التَّمييز الدِّينيِّ، والرَّدُّ عليها بأنَّ الإسلام ليس كذلك. وبما أنَّ المسيحيَّةَ دينٌ، وليس هناك دينٌ يقابلُها اسمُهُ الإرهاب، فإنَّ هذه الكلمة تتحوَّلُ إلى تسميةٍ أخرى للإسلام، وهي تسمية تسلُّطيَّة تروغُ من القانون، وتتَّسم بإخراس الآخر وعدم إعطائه الفرصة للرَّدِّ.

والمفارقة أنَّ الاستشراق الأكاديميَّ، الذي كنّا نتَّهمه حتّى سنواتٍ قليلةٍ بالمركزيَّة وتسويقِ نظرةٍ عدوانيَّةٍ، هو الذي صار يتصدَّى لمثل هذه الحَمَلات الدِّعائيَّة التَّعميميَّة، ويحرص على تبديدها وكشف ما فيها من تهافتٍ وتنميطٍ. وفي المقابل، فإنَّ الرُّدود العصبيَّة الانفعاليَّة في الشَّرق، بما فيها من مظاهراتٍ وحرقِ أعلامٍ ومهاجمةِ سفاراتٍ، لن تُسْفِرَ إلّا عن تأجيج لمثل هذه التَّنميطيَّة، وبدلاً من تبديدها، فهي تُسْهِمُ في ترسيخها. ولا يستطيع المراقبُ أن يُبَرِّئَ بعض الجهات من استخدام

الإسلام كسلاحٍ آيديولوجيٍّ للتَّهييج السِّياسيّ. فهي أيضاً، كما كانت الحال مع قصَّة القبيلة الإفريقيَّة، تصرُّ على إطلاقيَّة الغرب والشَّرق. والحال أنَّ الإسلام لا يتحدَّدُ ببوصلة الجغرافيا المتحوّلة، فحيثما تولُّوا وجوهَكُم فثَمَّ وجه الله. ولا خوف على الإسلام من كلمة أو كتاب أو ألف كتاب، فهو واحد من أعظم الأديان في تاريخ البشريَّة، وقد أوجب الإسلام أن يكون الرَّدُّ على المناوئينَ بالحُسْنى والكلمة النَّقديَّة الطَّيِّبة، لأنَّه يعرف أنَّ استخدام العنف في حقل الآيديولوجيا من شأنِهِ إشعالُها لا إطفاؤُها.